فوضى وليدة عاصفة كاملة

يعقوب عميدرور[1]

مقدمة – الحلم المتبدد

يقف العالم اليوم أمام معضلات صعبة تدور حول ما يجدر فعله مقابل ما لا يجدر فعله بشأن سيطرة الحركة الإسلامية الراديكالية وعلى رأسها الدولة الإسلامية على مناطق ودول في الشرق الأوسط بالمعنى الأشمل لهذا المصطلح، أي في المنطقة الممتدة بين مراكش وبنغلاديش، وبين المحيط الأطلسي وجبال الهيمالايا.

في آخر عقد من الألفية الماضية وبعد انهيار الاتحاد السوفييتي، كان يظهر وكأن "نهاية التاريخ" قد حانت، وأن الإنسانية ستخطو رويدا رويدا ولكن بخطى ثابتة نحو مستقبل أكثر ديمقراطية واقتصاد منفتح وعولمي، يتأثر إلى حد كبير بما يسمى "القيم الأمريكية". ولم يكن ذلك أمرا عرضيا، لكونه امتدادا "لقرن أمريكي" كان بدأ بصورة واضحة بالحرب العالمية الأولى، وحين أتى الجيش الأمريكي مخلصا لأوروبا، ثم عادت الولايات المتحدة إلى أوروبا إبان الحرب العالمية الثانية لإنقاذها من ألمانيا النازية، ومن ثم إلى آسيا للإجهاز على الماكنة الحربية اليابانية التي كانت قد أدركت أطراف أستراليا وهاواي.

وفيما استمر القرن العشرون بقيت الولايات المتحدة هي الدولة المهيمنة على النظام الدولي، فقد أقدمت بعد الحرب العالمية على نشر قواتها في اليابان وألمانيا، وضمنت حماية تلك المناطق وتمتعها بالهدوء، كما قادت "مشروع مارشال" لإعادة إعمار أوروبا المدمرة، إضافة إلى قيادتها لعملية بناء اليابان كدولة ديمقراطية، ثم مثلت القوة العظمى الرئيسية إبان "الحرب الباردة" ضد الاتحاد السوفييتي والصين، وأوفدت جنودها لخوض حروب دامية في كوريا وفيتنام، في محاولة لاحتواء تقدم الشيوعيين بقوة السلاح. كانت الولايات المتحدة أقوى دولة عسكريا خلال القرن العشرين، والقوة الاقتصادية الرائدة، وساهمت أكبر من أي دولة أخرى في المسيرة التكنولوجية التي مر بها العالم، وما إنزال الإنسان على القمر والحوسبة (ابتداء ب IBM وانتهاء بالجي بي إس) سوى أمثلة على الريادة التكنولوجية الأمريكية على كوكب الأرض وفي الفضاء الخارجي.

لذلك لا عجب في أن يكون الكثيرون يأملون ويقدرون بعد سقوط الاتحاد السوفييتي في العام 1991 أن عالما جديدا سيتم بناؤه بقيادة الولايات المتحدة وبناء على مفاهيمها.

ولكن بعد مطلع الألف الثالث بقليل، وفي 11 أيلول / سبتمبر 2001 تحديدا، وقع على أرض الولايات المتحدة أكبر اعتداء إرهابي في التاريخ، ومع أن نظرة سطحية تفيد بأن شيئا لم يتغير في الولايات المتحدة إثر ذاك الحدث، فقد عادة الحياة إلى طبيعتها ظاهرا، إلا أن ذلك خطأ جسيم، فقد غير أسامة بن لادن وتنظيمه "القاعدة" إلى حد بعيد أسلوب الحياة الأمريكي، إذ ازدادت أمريكا تشككا، وهو ما يشعر به أي مواطن أجنبي يدخلها، بل استحوذ عليها هاجس احتمال وقوع اعتداءات إرهابية أخرى، وهو ما يعلمه كل من يدرك الكم الهائل من المعلومات الاستخبارية (وليدة التنصت أصلا) التي تقوم بجمعها في العالم، ومدى

---

[1] الميجر جنرال (الاحتياط) يعقوب عميدرور، الباحث الأقدم المشارك في مشروع روسهندلر بمركز بيغين السادات للدراسات الإستراتيجية، والباحث الأقدم المشارك في مركز Gemunder التابع ل JINSA، والمستشار السابق لرئيس الوزراء لشؤون الأمن القومي، ورئيس مجلس الأمن القومي. وأشغل قبل ذلك منصبي رئيس الكليات العسكرية ورئيس دائرة التحليل في شعبة الاستخبارات العسكرية الإسرائيلية.

ما أصابها من هوس تأمين ممثليها في أنحاء العالم. وباختصار إن أمريكا خائفة ويشعر مواطنوها بقدر أقل بكثير من الأمان مقارنة بما مضى (يقول بطل مسلسل تلفزيوني شعبي لصديقه: "لن يصدّق أولادنا بأننا كنا نطير دون أن يتم النبش في كل أمتعتنا لمدة 45 دقيقة قبل إقلاع الطائرة بساعتين"، والحق معه).

ولكن قد يكون أهم من ذلك أن الاعتداءات الكبرى للقاعدة، ولا سيما على الأرض الأمريكية، قد غيرت وعي العديد من المسلمين في العالم، وهو تغيير قاد عبر مسيرة شديدة التعرج والالتواء إلى الأحداث الأخيرة في كل من العراق وسوريا، حيث أشّر الرئيس أوباما بقراره شن الحرب (الجوية في الوقت الحاضر) على تنظيم الدولة الإسلامية بأن العالم قد دخل مرحلة جديدة في عصر "تصادم الحضارات، وإن كان الرئيس الأمريكي يرفض تعريفه على هذا النحو. يشير الواقع الأليم إلى أن العالم الغربي الديمقراطي خاض حربا حقيقية ضد الإسلام السني الراديكالي، ظلت مستمرة منذ أكثر من ثلاثة عشر عاما، علما بأن إسرائيل تعيش مواجهة مماثلة منذ ثلاثين عاما، منذ اصطدامها بالإسلام الشيعي الراديكالي في لبنان.

تعود الحرب الدائرة رحاها الآن في العراق وسوريا إلى ما يسميه الأمريكان "عاصفة كاملة"، أي مجموعة من الأحداث غير المترابطة ظاهريا، غير أنها منسقة مسبقا، ليوجد تراكمها حدثا أكبر من مجموع أجزائه. وفي معظم الأحيان يستحيل التعرف على جميع الأجزاء الأولية "للعاصفة الكاملة"، لا بل يزداد الأمر صعوبة كلما اشتدت العاصفة، ومع ذلك، فإن وصف هذه الحالات يسهّل فهم الصورة، رغم كونه غير كامل، وعليه فسوف أحاول الإشارة إلى أهم المصادر (وإن لم تكن المصادر الوحيدة) التي ولدت الأحداث التي نشهدها اليوم في الشرق الأوسط، ألا وهي "العاصفة الكاملة" التي يتعامل معها العالم.

مصادر العاصفة

تعود جذور العاصفة فيما تعود إليه إلى ثلاثة أحداث متباينة ومتباعدة. لقد بدأت المسيرة قبل نحو مئة عام، وحين تحطمت الإمبراطورية التركية بعد انقضاء بضع قرون من الحكم التركي / العثماني، وذلك نتيجة الحرب العالمية الأولى، فقد أصبحت ثلاثة أحداث رمزا لنهاية عصر وبدء آخر، أولها نهاية آخر خلافة في العالم الإسلامي، لم يكن لها منافسون عند اختفائها، فلم تنشأ خلافة أخرى أو دولة أخرى تطالب بعرش حكم جميع المؤمنين. أما الحدث الثاني فهو إدخال تركيا إلى العصر الحديث بالقوة، ضمن محاولة إيجاد مستقبل مختلف لها كدولة علمانية، ما زاد من أبعاد الأزمة. وقد اجتمع إلغاء الخلافة، وهي المؤسسة التاريخية والدينية التي كانت أمنية تهفو إليها القلوب، رغم خلوها من أي معنى عملي، بمسيرة تاريخية أوسع نطاقا، فقد خلالها الإسلام موقع الريادة العالمية. وإن لم يكن ذلك من تبعات تفسخ الإمبراطورية التركية، إلا أن تعاظم الغرب وسيطرة قيمه على العالم وعلى أهم خطاب عالمي، أفقد الإسلام أي أمل في تقديم مساهمة رئيسية في رسم ملامح العالم. وحتى حين أصبح الاقتصاد معتمدا على الطاقة المنتجة في دول إسلامية، ظل نفوذ تلك الدول في العالم يكاد يكون معدوما. وقد أثر الإحباط الناشئ عن مجمل هذه الظواهر على مزاج الجماهير وقياداتهم، حيث أشار بن لادن في أحد خطاباته الأولى إلى الحدث الصادم المتمثل في نهاية الخلافة، ولم يدرك ما يتحدث عنه سوى قلة من الناس في الغرب.

وكان الحدث الثالث قرار القوتين العظميين المنتصرتين، وهما بريطانيا وفرنسا رسم خارطة الشرق الأوسط بعد احتلالا من الأتراك بما يناسب احتياجاتهما. وقد أقدم مسؤولان رسميان هما "المستر" سايكس و"المسيو" بيكو "بتقطيع" المنطقة إلى دول (علما بأن مفهوم "الدولة" كان مفهوما جديدا في أجزاء كبيرة من المنطقة)،

وقد فعلا ذلك في حالات عديدة دونما اعتبار لحدود طبيعية أو انتشار قبائل وطوائف، وعبر وصل بعضها ببعض بشكل اصطناعي والفصل بين بعضها الآخر بقساوة، حيث أصبحت القبيلة البدوية الواحدة مقسمة بين دولتين وباتت الدولة الواحدة تتألف من عناصر متعادية تم وصل بعضها ببعض رغم رفضها لذلك.

وخلال الخمس وتسعين عاما المنقضية مذ ذاك، مر الشرق الأوسط بعدد من المسيرات، ولكنه ظل خلال هذه الفترة كلها تقريبا خاضعا لحكم نوعين من الطواغيت، أولهما سلالات ملكية كانت تعتبر الدولة ملكا خاصا بها سواء حين كان ذلك في صالحها أم في غير صالحها، والنوع الثاني حكام تولوا الحكم بقوة الجيش والأجهزة الأمنية الموالية لها. ومنذ بداية المسيرة، وبعد نحو عشر سنوات من الحرب العالمية الأولى، تأسست في القاهرة حركة الإخوان المسلمين والتي يمثل شعارها "الإسلام هو الحل" رمزا مناسبا للأمنية التي ظلت تعيش على الدوام في قلب عالم الدول الدكتاتورية، وكانت الشريعة جزء من دستورها، ولكن القرارات لم يتخذها أنصار الإسلام، بل اتخذها أنصار الحكم الدكتاتوري. ومن بعيد بدا الشرق الأوسط منطقة جامدة تمسك بها كماشة من حديد تلين أو تقسو باختلاف طبيعة الحاكم والحكم، ولكن لا تمر بمتغيرات ملموسة، حتى لو حل الضباط محل الملوك أو حل دكتاتور جديد محل سلفه. ولكن كانت قوى عظيمة تنبض تحت السطح وقلبها الإسلام.

كان الحدث التأسيسي الأول بالترتيب الزمني ضمن مسيرة التغيير التي نشهدها اليوم، وبتقديري، هو نجاح آية الله روح الله خميني في إسقاط نظام الشاه في إيران سنة 1979 وبناء دولة إسلامية يقوم على إدارتها وبلا منازع رجال الدين. فقد أوصل ذاك الحدث رسالتين إلى المنطقة، أولاهما برسم الشيعة في أنحاء العالم الإسلامي ومفادها أنه كان حدثا تاريخيا خلص الشيعة من قرون من السلبية والخضوع لمركزهم المتدني باعتبارهم أقلية (15%) ضمن الأغلبية السنية. وكانت الرسالة الثانية أهم من الأولى، ومفادها أن النجاح أثبت للسنة أيضا أن الدولة الإسلامية في العصر الحديث تستطيع إدارة أمورها سيرا على المبادئ الإسلامية والخضوع لإشراف رجال الدين.

وقد استغل الإيرانيون نجاحهم للنهوض بمصالح الشيعة في جميع أنحاء الشرق الأوسط، وزجوا بأفعالهم في الشرق الأوسط قوى فعالة جديدة أثارت عدم الرضا والاضطراب في الدول العربية. ولا شك أنهم قد أيقظوا قوى نائمة عند السنة الذين باتوا يخشون من القوة الصاعدة للشيعة، وكذلك عند الشيعة الذين أدركوا أن وضعهم قابل للتغيير. وفي نطاق ما بذلوه من جهود لإحداث تغيير في الشرق الأوسط تمكن الإيرانيون من تنمية القدرات الإرهابية الشيعية (حزب الله) والسنية (حماس والجهاد الإسلامي)، حيث دفعوا بالإرهاب إلى قلب العمل الإسلامي وحولوه إلى أداة مشروعة ناجحة على مستوى عال وذات قدرات عالية جدا (وإن لم يكونوا أول من حقق ذلك، علما بأن تمكن ياسر عرفات من تحقيق الإنجازات الدولية من خلال الاستخدام المكثف للإرهاب لم يتم بحثه علميا بالقدر الكافي، وبتقديري أن ما حققه الفلسطينيون من نجاح في العالم كان خطوة هامة في إدخال الإرهاب المكثف في المنظومة الإسلامية خلال العصر الحديث واعتبارا من سبعينات القرن الماضي). وظل الشيعة مذ ذاك قوة فعالة داخل الإسلام، حيث بدأت الموجة الجديدة من النشاط الإسلامي الراديكالي في طهران ولم يقل الإيرانيون والشيعة اندفاعا منذ ذلك الحين، وحديثا صرح مسؤول إيراني كبير بأنها أول مرة خلال القرون الأخيرة تملك فيها ايران حلفاء من الشيعة يتمتعون بنفوذ حاسم في أربع عواصم عربية، هي بغداد ودمشق وصنعاء وبيروت، علما بأنها ليست المرحلة الأولى في التحرك الإيراني بالشرق الأوسط، فالنزوة الإيرانية للسيطرة على البيئة المحيطة بها والامتداد منها إلى الشرق الأوسط العربي على أقل تقدير تقف في الصميم من الجهد الذي تبذله ايران للحصول على السلاح النووي،

والذي سيكسبها الحماية الكاملة التي تستطيع في ظلها تحقيق الحلم الشيعي المكبوت منذ سنين كثيرة. أما العرب المجاورون لإيران وأكثريتهم الساحقة من السنة، فيدركون ذلك ويخشون العدوانية الإيرانية الشيعية بشكل عام والقنبلة النووية بشكل خاص، ولا يمكن فهم الشرق الأوسط دون الأخذ في الاعتبار الخصومة العميقة الجذور والعائدة إلى مئات السنين بين السنة والشيعة وما حدث من تغير جذري بعد الثورة الإيرانية، وهو التغيير الذي ما زال إلى يومنا هذا يمثل قوة دفع شديدة القوة للطرف الشيعي في الصراع، وقد تمثل ذلك وسوف يتمثل في كل مكان في الشرق الأوسط يشهد تنافسا بين الشيعة والسنة.

آخر مثال على ذلك حتى الآن هو صراع الحكم الدائر في اليمن، وهو الجار الجنوبي الفقير للعربية السعودية، حيث تلاحمت قبائل من الشيعة الزيدية تمثل أقلية بأنصار الرئيس المعزول وهو من ضحايا الربيع العربي، ليحتلا معا العاصمة صنعاء. وقد شاهد السعوديين حلفاء إيران والتي قدمت لهم دعما غير قليل ومنه السلاح أساسا، وهم يسيطرون على اليمن شيئا فشيئا ليوجدوا منطلقا جديدا للضغط الإيراني على السعودية التي تعتبر نفسها قائدة للعالم العربي والسني، والتي قرر ملكها الجديد بعد تردد غير قليل التصدي للتحدي الشيعي، وهو سبب إقدام السعودية على قصف أهداف للقبائل الحوثية في اليمن وقيامها بإعداد قوة غزو كبيرة تحسبا لوضع لن يمكن فيه إنقاذ الموقف سوى بالعملية العسكرية البرية. وقد التحقت بالسعودية عدد من الدول العربية السنية الراغبة في إدامة الوضع القائم داخلها، ومنها دولة الإمارات العربية والأردن والمغرب ومصر، وهي أهمها جميعا. ومع أن كلا من هذه الدول لا تقدم إلا النزر اليسير من إمكانياتها، علما بأن الباكستانيين رفضوا تقديم الدعم، وليست ثمة دولة تشارك بقواتها البرية، إلا أنها قد شكلت إطارا هاما لمواجهة مستقبلية ممكنة للمد الشيعي، وهو سمة أخرى من سمات الصراع المعاصر الذي يعود إلى قرون متعددة بين السنة والشيعة.

أما الرسالة الثانية للثورة في إيران فكان تأثيرها أوسع نطاقا، حيث أدركت جهات الإسلام الراديكالي أن حلمها في السيطرة على مختلف الدول والسير بها على مبادئ الإسلام ليس يمكن وصفه بغير العملي، فإذا تحقق الحلم في طهران، فقد يتحقق في القاهرة والرياض أيضا. ورغم ما بينها من أوجه الاختلاف أدركت جميع الحركات الأصولية أن الواقع قد تغير، وأن ثمة أفقا "للحل الإسلامي" هاهنا في عالم الحاضر وفي الوقت الحاضر.

وكان الحدث الثاني في مسيرة تغير الشرق الأوسط أكثر تعقيدا، وتضمن عددا من المراحل، حيث بدأ بتمكن المتطرفين السنة في أفغانستان من الصمود في وجه القوى العظمى العلمانية الكبيرة، ألا وهي الاتحاد السوفييتي (في الفترة ما بين 1978 و1989)، والتي كانت إحدى أعظم قوتين في عالم ما بعد الحرب العالمية الثانية، بل من جرها إلى الانهيار، بحسب تقديرهم. كان من فعل ذلك الطالبان ومن خلال الحصول على دعم كبير نوعا وكما من الولايات المتحدة التي كانت تنظر إلى صراعهم على أنه فرصة أخرى للنيل من الاتحاد السوفييتي، رغم أن هذا النجاح قد مثل بالنسبة لهم ولأمثالهم دليلا على ما يتمتع به الإسلام السني الراديكالي من قوة غير مقهورة. وأصبح التساؤل الذي يدور في الأذهان بعد أول نجاح حققته قوة إسلامية أمام قوة أوروبية عصرية علمانية هو "ماذا الآن؟" و"ماذا بعد الآن؟" وتبين فيما بعد أن النجاح قد حمل في طياته صحوة سنية قادت إلى تأسيس القاعدة في العربية السعودية، ونقلها إلى أفغانستان، حيث كان المضيفون هم من غلبوا القوى العظمى الشيوعية، وتوجيه الصراع إلى الدولة العظمى الوحيدة المتبقية في العالم، أي الولايات المتحدة الأمريكية. ظلت العربية السعودية لسنوات عديدة دولة مصدرة للأفكار الإسلامية الراديكالية من مدرسة أصحاب الرؤية الوهابية، وهم شركاء حكم آل سعود ومن يضفون عليه

الشرعية الدينية في شبه الجزيرة العربية. وقد شعر أسامة بن لادن الذي ترعرع وتربى في أحضان المتعصبين الوهابيين بأن الطريق التي يسيرون بالمملكة عليه والتعاون القائم بينهم وبين البلاط السعودي لا ينتهي إلى أي مكان، ولذلك انفصل عن بلده وائتلف مع من غلب الاتحاد السوفييتي، لمواصلة الحرب الشاملة على القوة العظمى المتبقية.

وكان مفهوم بن لادن للواقع يقضي بأن الدول العظمى الغربية قد صاغت عالما أُقصِيَ فيه الإسلام إلى هامش التاريخ ليكاد نفوذه يكون غير ملموس. وكان يفكر في ثورة تطال العالم بأسره على عدو رئيسي هو الولايات المتحدة الدولة الأعظم الرائدة للجميع، ولم تكن قوة الولايات المتحدة السياسية والعسكرية هي وحدها الشوكة في خاصرته هو وأنصاره، بل أيضا ثقافة الغرب التي كانت تهدد الإسلام بحسب رؤيته الأصولية. ويشكل المزيج بين الإحباط الناشئ عن وضع الإسلام كقوة غير متنفذة في العالم من جهة، ومشاعر الكراهية نحو ثقافة الغرب الذي يقود العالم من جهة ثانية، مصدر الطاقة السلبية التي كانت تحرك بن لادن وتنظيمه، أسوة بغيره من التنظيمات الأصولية والتي تعتبر الدولة الإسلامية أهمها.

وكان أبرز مثال على الصراع السني الذي كان يقوده بن لادن من أفغانستان هو الاعتداء الإرهابي الكبير المعروف ب 9/11، إذ أعلنت الولايات المتحدة على أثره حربا شعواء على الإرهاب السني، وحركت في ذلك الإطار قواها العسكرية عبر غزوها لأفغانستان معقل القاعدة واحتلالها للعراق، مع العلم بأن احتلال أفغانستان وما خلفته الولايات المتحدة من ورائها عند سحبها لقواتها منها لا تأثير لهما على الشرق الأوسط برمته. أما احتلالها للعراق فذو تأثير كبير، إذ يمتد قلب الشرق الأوسط من الهلال الخصب الذي يتوسطه العراق ومصر الواقعة على امتداد النيل. وفي العراق تمكنت الولايات المتحدة من الإطاحة بواحد من أقوى الحكام في العالم العربي وأكثرهم نفوذا، حيث أوجدت سابقة للقضاء على حاكم مستبد والتدخل الفظ في شؤون دولة أخرى، مخلفة وراءها ذيلا غير متناه من الدماء. وقد أفضت تلك الحرب إلى تفسخ العراق وتحريض الشيعة والسنة والكرد بعضهم على بعض وإيجاد مسيرة خلقت فراغا سلطويا وغياب أي سيطرة فاعلة عن مناطق شاسعة جدا تقع إلى الشمال الغربي من بغداد، حيث لن يعود العراق دولة متكاملة مثلما كان قبل الغزو الأمريكي، علما بأن تلك المناطق الشاسعة غير الخاضعة لأي حكم مناسب تستدعي دخول قوى مزعزعة للاستقرار.

وكانت النتيجة الإجمالية للحروب الدائرة ضد الدول العظمى العالمية مشجعة للغاية حتى الآن، من وجهة النظر الإسلامية، فقد حققت الحرب على الاتحاد السوفييتي نجاحا ساحقا، فيما تعرضت الولايات المتحدة لضربة قاسية عندما فشلت محاولتها تحقيق الاستقرار في كل من أفغانستان والعراق، بل إن الدول العظمى تعرضت للطرد من الأراضي الإسلامية في نهاية الصراع، وكان الشعور بالنجاح قويا وشديد الوقع، إذ تبين أن فرض التغيرات على العالم الإسلامي شيء مستحيل على ما يبدو، وذلك بخلاف التغيير الذي كان قد فرض على كل من ألمانيا واليابان، خاصة إذا كان من يحاول فرضه غير غارب في توظيف الوسائل الكثيرة وعلى مدى سنين طويلة والتضحية بعدد غير قليل من الأشخاص. وهكذا يتضح أن الحركات المتبلورة على أساس من المفهوم الراديكالي للإسلام لا تتخلى عن أحلامها بسهولة وتتمكن من الصمود في صراعاتها الطويلة والمضنية مع الغرب، بل قد حقق بعضها نجاحا أكبر من ذلك حين تمكن من الوصول إلى العواصم الغربية بطرق ملتوية وجعلها منطلقا آخر للعمل ضد العدو. وعليه، أصبح واضحا أن الجمع بين قوة الحركات الراديكالية في نظرها هي وعجز القوى العظمى العالمية وعلى رأسها الولايات المتحدة عن التعامل معها، قد ساهم وسوف يساهم مستقبلا أيضا في السلوك السلبي جدا للقوى الرائدة في

هذه المنطقة. وإذا لم يحدث تحول بنتيجة سلسلة طويلة من الإخفاقات، ينتظر ألا يتمكن أحد في المستقبل القريب من النيل من الثقة بالنفس التي تتمتع بها الحركات الراديكالية وشعورها بأن الله يقاتل إلى جانبها، وسوف تعتبر أي فشل لها فشلا مؤقتا ضمن مسيرتها نحو النصر العظيم. إنها تناضل من أجل تغيير العالم الذي همّش الإسلام مدركة أن مثل هذا النضال سيدوم لفترة طويلة من الوقت، والصبر والمطاولة لفترة طويلة في صراع عنيد يبدو أحيانا وكأنه لا أمل يرتجى منه يمثلان جزء من أسباب قوتها في الصراع وهي نفس الأسباب التي ستهبها ميزة على أعدائها الغربيين، علما بأن مفهوم الوقت والبرنامج الزمني لتحقيق أهدافها يمثلان وجها آخر من وجوه الاختلاف القائم بين ثقافة الغرب والتي تعتمد على إعداد تقرير بالربح والخسارة مرة كل ثلاثة شهور ووجوب تحقيق النصر في انتخابات تجري كل فترة لا يتعدى طولها سنين معدودة.

وكان الحدث الكبير الثالث الذي أثر كثيرا على الشرق الأوسط هو سلسلة الأحداث التي أطلق عليها "الربيع العربي"، هذا "الربيع" الذي قضى مرة واحدة على جزء ملموس من تلك الاتفاقات الإقليمية التي أوجدتها بريطانيا وفرنسا الدولتان الاستعماريتان بعد الحرب العالمية الأولى، وفتح بذلك نافذة لقوى شديدة البأس بعضها مظلم كانت تعرضت للقمع على أيدي الأنظمة الشمولية في تلك الدول. وأصبحت لذلك العائلة والعشيرة والطائفة والديانة نقاط الجذب والولاء في المكان الذي كانت الدول تقف فيه منذ سقوط الإمبراطورية العثمانية. والآن سقطت كليا منظومة الدولة التي فرضت نفسها على المواطنين وحالت دون ثوران تلك القوى في أجزاء كبيرة من الشرق الأوسط، ومن أبرزها ليبيا وسوريا واليمن والعراق، فيما تشعر دول أخرى بأنها مهددة ومن شأن الضغوط الداخلية التي تتعرض لها أن تخضعها لتحولات أخرى، وتقف على رأس هذه الدول المهددة من الداخل كل من لبنان والبحرين والأردن، بل حتى الدول التي تبدو مستقرة ومنها مصر والسعودية تنتظرها تحديات قاسية للغاية. وفي دول المنطقة جميعا يترتب على الحكم الذي بقي مستبدا (ربما باستثناء تونس) التعامل مع الضغوط الداخلية والجماهير وأخذهم في عين الاعتبار خلال اتخاذه للقرارات، حيث بات الشارع له تأثير حاسم حتى في الدول التي حافظت على إطار الدولة وآليات التحكم والإكراه، وقد كان ثمة من اقترح تسمية هذا الوضع streetocratia أي حكم الشارع.

كان سبب ثورة الغضب الجماهيري سنة 2010 التي طالت عدة دول ابتداء من تونس وحتى سوريا سببا داخليا كان يعود إلى طبيعة الأنظمة الحاكمة في المنطقة، وإن كانت تؤثر في كل دولة أوضاعها ومشاكلها الخاصة بها. وقد سمعت من عالم كويتي ذات يوم أن أهم سبب لانفجار الربيع العربي كان النيل من كرامة المواطن في الدول العربية، علما بأن هذا المصطلح يميز كون الحاكم "القادر على كل شيء" قد تناسى أن عليه التزاما نحو مواطني الدولة، لا نحو مقربيه فحسب. وقد خيب الحكم الدكتاتوري في تلك الدول أمل المواطن في إنجازاته، ولكنه كان شديد الحرص على مصالح مقربيه، وكان سيلا عارما من الأحداث المفاجئة المتلاحقة ثمرة العلاقة بين الحكام المحكومين، كاد يخلو من أي تأثير خارجي، ومن الملفت أن تكون مختلف الممالك، سواء كانت غنية غنى السعودية والدول الخليجية، أم فقيرة فقر الأردن والمغرب، قد بقيت دون أي نيل تقريبا من الحاكم وحكمه. ويبدو أننا أمام مزيج من الأسباب، ومن بينها "الشرعنة" المقدمة لهؤلاء الحكام في دولهم ولها مميزات ثقافية ودينية على حد سواء.

تمثل أحداث الربيع العربي وتنامي الرؤى الإسلاموية في المنطقة جزء من صراع يدور حول هوية المنطقة والمجتمعات التي تعيش فيها، وقد وقعت جميعها على خلفية من فقدان الثقة بالنظريات والمقاربات والمفاهيم العالمية التي تم استيرادها من الثقافة الأوروبية عبر حركات حددت مجريات الأمور في الشرق الأوسط منذ

نهاية القرن الثامن عشر، حين احتل نابليون مصر عام 1798، حتى نجاح الدكتاتورات ومعظمهم من القادة العسكريين في الاستيلاء على مختلف الدول الواقعة في قلب المنطقة لعقود من السنين، ومن الجزائر حتى بغداد. وكما أشرنا إليه كان تقسيم المنطقة إلى دول في معظم الأماكن ثمرة استيراد من أوروبا، وقد تم هذا التقسيم بناء على احتياجات القوى العظمى الأجنبية، بمعزل عن سياق تاريخي ودونما اعتبار للمجتمع والمنطقة، وعليه فلا عجب في كون اللجوء إلى المرجعية الشرعية والاعتماد على المميز الإسلامي الديني بارزا جدا في أربع معارك انتخابية منفصلة، وذلك عند الفلسطينيين وفي مصر وتركيا وتونس، حيث تم انتخاب ممثلي الإخوان المسلمين وأمثالهم من قبل غالبية السكان، بمحض إرادتهم ودون إكراه، إذ كان معظم الناخبين في تلك الدول على الأقل يؤمنون بأن "الإسلام هو الحل" للمعضلات التي كانت تواجههم كبشر وكمسلمين وكدولة. ويدل هذا النجاح في أماكن شتى من المنطقة على أن اختيار الإسلام السياسي الراديكالي كنهج حياتي ليس واقعة عرضية محدودة، وإنما نتيجة مسيرة تضرب جذورها في أعماق التاريخ، بدليل أن الأمر قد وجد تعبيره في اثنتين من أهم دول الشرق الأوسط، إحداهما غير عربية، وهما تركيا ومصر، كما تجلت في دولة كانت خاضعة لنفوذ أوروبي شديد ومطول (تونس)، كما عند الفلسطينيين، الذين يعتبرون من أكثر المجتمعات العربية في الشرق الأوسط ثقافة.

وقد أدرك الجنرالات المصريون، وقد يكون إثر التجربة التركية، أنهم إن لم يسرعوا إلى وقف المسيرة، سوف يفقدون مركزهم وقدرتهم على تغيير الموقف، ولذلك قاموا بثورة مضادة، ولكن الإخوان المسلمين ما زالوا أقوى قوة مدنية في مصر، حيث فازوا بأربعة وخمسين في المئة من أصوات الناخبين، فيما فازت الحركة السلفية بأربعة وعشرين بالمئة! وفي تركيا وقع التحول الذي وضع حدا لأطول وأنجح محاولة لتحويل دولة ومجتمع إسلاميين إلى دولة مدنية يدين مواطنوها بالإسلام، ولكن لم تصمد المحاولة التي بدأت بشكل عملي قبل قرابة مئة عام (على أيدي أتاتورك) بوجه قوة الديانة والثقافة الإسلاميتين الأصيلة والمتجذرة في أقرب دولة شرق أوسطية إلى أوروبا. أما تونس، فبعد انتخابات أخرى انتخب فيها حكم علماني، قد تمثل بادرة لتغيير محتمل مستقبلا.

قبل ما يزيد عن عشرين عاما (وكنت آنذاك رئيسا لدائرة التحليل في شعبة الاستخبارات العسكرية) سألني رئيس الوزراء الراحل المرحوم يتسحاق رابين عن سبب اعتقادي بأن الخطر الإسلامي الذي كنا قد أصبحنا نشير إليه له عمر متوقع أطول من نظريات أخرى مثل الناصرية والبعثية والقومية العربية، وهي نظريات كان يعرفها وظل يواجهها لسنين طوال، فكان ردي بأن الإسلام كقوة سياسية ينشأ من تحت، أي من الثقافة الأصيلة لسكان المنطقة، وذلك خلافا لغيره من الرؤى والنظريات الأخرى التي استوردتها النخب إلى المنطقة لتفرضها على مختلف المجتمعات. إن الواقع يثبت ذلك فعلا.

تمثلت مساهمة العالم الغربي في كارثة الربيع العربي بشكل حاد خلال العملية التي تم تنفيذها في ليبيا، حيث قضى الغرب على قائد مضطرب غير ودي كانت قدرته على إلحاق الأذى بما خارج بلاده قليلة، فكانت النتيجة تفسخ ليبيا كدولة تؤدي مهامها والحرب اللا نهائية بين قبائل متخاصمة منذ الأزل وتحويل ليبيا إلى محل ضخم لبيع السلاح، حيث تصدّر منها الأسلحة إلى جهات متطرفة في دول أفريقيا تقع جنوب الصحراء الكبيرة وإلى مصر للاستخدام الداخلي وإلى سيناء لحساب جهات متطرفة في شبه الجزية وقطاع غزة – هذه هي المساهمة الأساسية التي تقدمها ليبيا ما بعد الثورة للإنسانية بوجه عام وللشرق الأوسط بوجه خاص.

وتتجلى المساهمة السلبية للعالم الخارجي أيضا في عدم الاستعداد لاستخدام القوة في وقف التدخل الإيراني الهادف إلى إنقاذ الأسد وعدم الاستعداد لدعم الجهات المعتدلة في سوريا خلال المراحل الأولية من التمرد، علما بأن الاستعداد لدعم الأكراد في سوريا والعراق في مواجهة مقاتلي الدولة الإسلامية ما زال ضئيلا إلى هذا اليوم. وبنتيجة ذلك تتعاظم الجهات المتطرفة في صفوف المعارضة السورية وفي المنطقة التي تقع على امتداد الحدود العراقية، كما يستمر القتال وأعمال القتل (المتبادلة)، وهو ما يعتمد عليه زخم حركة الدولة الإسلامية التي تدخل الفراغ الناشئ عن ضعف النظام العراقي وإقصاء السنة من قبل حكومة الشيعة في بغداد بعد خروج القوات الأمريكية. زد على ذلك وفي الجانب السوري لخط الحدود (والذي اختفى فعلا) فقدان الأسد للسيطرة على المناطق الشمالية الشرقية لسوريا وعجز المعارضة السورية عن الاتحاد لتمثل قوة حقيقية يمكنها السيطرة على هذه المناطق. ويقف العالم مكتوف الأيدي حين يُقتل نحو ربع مليون شخص في سوريا وقد يكون أكثر من ذلك، ويقارب عدد اللاجئين عشرة ملايين نسمة، يقيم أكثر من ثلثهم خارج سوريا ويعيش ظروفا حياتية مخزية. ولا يمكن بالطبع معرفة أو تقدير مدى تغيير وقف الدعم الإيراني أو زيادة دعم المتمردين الأقل تطرفا للواقع على الأرض، ولكن من الواضح أن الفراغ الذي أوجده هذا العجز هو الذي سهل دخول تنظيم الدولة الإسلامية.

ولحسن طالع الشرق الأوسط فشلت مساعي جهات خارجية لمنع أو وقف الثورة المضادة للجيش في مصر، وهي المساعي التي لو حالفها النجاح وحافظ الإخوان المسلمين على السلطة في مصر، لكان ترتب عليها زيادة قوة الإسلام المتطرف عشرات الأضعاف، إذ كان استمرار حكم الإخوان المسلمين في مصر وزيادة دعم ممثليه في أنحاء الشرق الأوسط سيقود إلى إضعاف الحكم الأردني (ربما إلى حد إسقاطه)، وتدخل تركيا الأكثر فعالية بكثير في قلب الشرق الأوسط وتقديمها الدعم للقوى الراديكالية في العالم العربي، وربما أيضا لصمود الإخوان المسلمين في تونس في وجه التحرك الديمقراطي الذي فرض عليهم. ورغم أن المشاكل التي تعاني منها مشاكل مزمنة لن يحلها الجنرالات بسهولة وفي الفترة القريبة القادمة، إلا أن الانقلاب الذي قاموا به كان بمثابة دعم قوي للقوى المناهضة للراديكالية في المنطقة بأسرها، ما وفر فرصة أخرى للتعامل مع المشاكل بغير أسلوب الإسلام الراديكالي.

والى تلك الأحداث الكبيرة يجب إضافة عامل آخر مؤثر، وإن كان أقل أهمية إلا أنه اكتسب الأهمية لتنامي وزن الشارع في الشرق الأوسط أساسا. هذا العامل هو قطر، تلك الدولة الخليجية البالغة الصغر وصاحبة الكميات اللا محدودة من المال، والتي دعمت وعززت التنظيمات الإرهابية من أمثال حماس والتنظيمات المعارضة في سوريا ومنظمة الإخوان المسلمين في مصر، حيث بذلت كل مستطاع بمساعدة قناة الجزيرة التي تمولها لزعزعة أنظمة الحكام المعتدلين الذين لا يخضعون لإملاءات الإخوان المسلمين في دولهم، علما بأن قناة الجزيرة تستغل إلى آخر درجة تنامي تأثير الشارع، لتتمكن من ضعضعة ما هو قائم، دون أن تسهم مثقال ذرة في بناء شيء بديل ذي قيمة بالنسبة للاستقرار المستقبلي. ورغم كون تعرض المجتمع العربي للإعلام إثر ثورة الإنترنت أمرا مهما باعتباره عنصرا اجتماعيا جديدا، إلا أن التحريض الذي قادته قطر يعتبر أهم عامل من منظور التأثير على الشارع العربي. وإن كان السعوديون والدول الخليجية يسعون لتقزيم التأثير القطري، ولكن أصبح من الصعب إبطال مفعول ما ألحقته باستقرار المنطقة من أضرار.

ومن المهم التأكيد، وعلى خلفية الأخطاء التي ارتكبها الغرب خلال أحداث الربيع العربي بالذات، أنه ليست هي القوى الخارجية من قاد بأفعاله أو تفاديه العمل إلى أحداث الربيع العربي وتبعاته المؤسفة، وإن كان لها في ليبيا بعض الإسهام في السلبيات، ولم تحل دون حدوث ظواهر سيئة حتى حين كان ذلك لا يزال ممكنا

في سوريا، بل قد تكون كذلك سرعت بعض التطورات في مصر، إلا أن الربيع العربي ناشئ عما يعانيه المجتمع العربي من متاعب وعن خيانة الحكام للواجب الملقى حتى على الدكتاتور في تزويد شعبه بما يستحقه من احتياجات. هذه الأمور جميعا لا يقع اللوم فيها على العالم الخارجي.

تشخيص أمراض الشرق الأوسط كنت قد سمعته قبل ما يزيد عن خمسة عشر عاما من مسؤول مصري، قال لي خلال حديث جرى بيننا حول الشرق الأوسط إن المنطقة توجد فيها أربع دول حقيقية لا غير، وهي مصر وتركيا وإيران وإسرائيل. وحين أبديت استغرابي لخلو قائمته من أي دولة عربية غير مصر، قال: "هي ليست دولا، بل هي عائلات ترفع أعلاما". إن هذا التشخيص الواضح، مهما بلغ من عدم الدقة والتعميم، يحدد بشكل جيد أحد أهم أسباب أحداث الربيع العربي، فقد كان ذلك عالما مصطنعا تم بناؤه استجابة لاحتياجات الدول المنتصرة في الحرب العالمية الأولى.

تعميما وفلسفيا يعتبر ما وصفناه هنا متصلا بالصراع الدائر في العالم الإسلامي فيما يتعلق بالتعامل مع ظاهرة الحداثة، وهو الصراع الذي تقف الدولة في الوسط منه، وهو لب النزاع الداخلي الذي يشهده الإسلام، وهو إلى حد بعيد جوهر صراع جهات الإسلام الراديكالي ضد العالم بأسره، فالإسلام لم يخضع للتحول الذي خضعت له المسيحية منذ القرون الوسطى ولا لما مرت به اليهودية من استيعاب للعالم المعاصر. والرابطة التي لا تنفصم بين الدين والدولة والحياة الشخصية تمثل جانبا من جوانب المشكلة التي تعترض سبيل المجتمعات الإسلامية في طريق تعاملها مع العالم المعاصر، وهو إلى درجة كبيرة السبب في شعورها بإقصائها منه. إنه جوهر الأصولية الإسلامية التي تحاول اليوم أن تعيش، دون أي تحديث يذكر، حياة القرن الذي عاش فيه النبي محمد، وهي مقاربة يصبح وجهها مهددا وقاسيا حين تنتقل هذه الحركات من التفكير إلى التنفيذ وبكل جدية ودونما سماحة أو مرونة، وتسري هذه التعاريف أيضا حين يتم تناول صراع هذه الحركات ضد الحكام والخصوم داخل الإسلام بالدراسة والتمحيص، لتفيد النتيجة بأن حركات الإسلام الراديكالي قتلت خلال السنوات العشر الأخيرة، ورغم الصراع غير المتوقف ضد الغزاة الغربيين لأفغانستان والعراق وضد إسرائيل، عددا أكبر بكثير من أبناء ديانتها وهم مثلهم مثلها من السنة أو الشيعة وبعضهم غاية في التدين بكافة المعايير. فقد كلف هذا المزيج من التعصب والقسوة ثمنا باهظا مروعا من دماء الشعوب الإسلامية عامة والسنة خاصة، لكون الجمع بين التعصب الديني والإحساس بعدم إنصاف العالم والذي لا يعبر بسلوكه عما ينظرون إليه هم على أنه مصلحة وأيديولوجية دينية إسلامية يجعل الصراع صعبا وقاسيا.

الإطار العالمي

ثمة أربع ظواهر عالمية تزيد من اضطراب المنطقة اجتمعت بأحداث الربيع العربي التي نشأت وكما أشرنا إليه عن تطورات داخلية شهدتها المنطقة.

1. لا يوجد اليوم أي منظمة دولية يليق بها هذا الوصف وتؤدي مهمة الحكم الفعال والموفق الذي يفرض سلطانه على الدول العاصية المزعزعة للاستقرار والمتدخلة في شؤون جاراتها والممولة والمحركة للإرهاب أو القاتلة لمواطنيها (إيران، السودان الشمالي، كوريا الشمالية وسوريا، علما بأن هذه الدول هي الأبرز في القائمة لكن القائمة لا تقتصر عليها). أما الأمم المتحدة، وهي المنظمة الأكبر التي علقت عليها آمال كثيرة بعد الحرب العالمية الثانية، فقد أفلست، وهو الإفلاس البادي للعيان سواء من الناحية

العملية، لكون الدول الكبرى يحيّد بعضها بعضا، كما تحيد أعمال الأمم المتحدة عند اقتضاء الحاجة، أو من الناحية الأخلاقية، إذ تعمل الجمعية العامة مستندة إلى أغلبية تلقائية لا تمت بصلة إلى الاحتياجات الأساسية للمجتمع الدولي. ولكون كل دولة تملك حق التصويت في الأمم المتحدة، تستطيع المجموعات المنظمة تمرير أي قرار تقريبا في الجمعية العامة، علما بأن المجموعة المتجانسة الأكبر في الأمم هي مجموعة الدول الإسلامية البالغ تعدادها سبعا وخمسين دولة (تكاد تمثل نصف "مجموعة دول عدم الانحياز"). لا عجب إذن أن التشكيلة الحالية للأمم المتحدة تقوم بتمرير قرارات مستغربة ولا معنى لها أصلا بالنسبة لما يجري في الشرق الأوسط وغيره من مناطق العالم من مستجدات. وحين تنتمي إيران والسودان إلى عضوية لجنة حقوق الإنسان (والتي يوجه نحو نصف ما تتخذه من قرارات ضد إسرائيل)، فيما تصبح إيران عضوا رائدا في لجنة منع انتشار الأسلحة، تصبح الأمم المتحدة منظمة سخيفة تهين مؤسسيها الذين توقعوا منها الكثير. وقد بدا بعد سقوط الاتحاد السوفييتي أن العالم سيوجد أدوات دولية قوية فاعلة في المجالين القانوني والسياسي على أساس معتقدات جديدة وقديمة أو كتطور طبيعي متحرر من قيود الصراع بين الكتلتين الذي كان قد أوقف أي عملية إيجابية خلال عهد الحرب الباردة، ولكن لم تتحقق أي من تلك التطورات الإيجابية، بل بالعكس، فإن المحكمة الدولية في لاهاي، شأنها شأن لجنة حقوق الإنسان، على وشك أن يتم "اختطافها" لخدمة الصراع الفلسطيني ضد إسرائيل، ولو تمكن الفلسطينيون من ذلك، ستصبح هي الأخرى مؤسسة غير ذات شأن، لا تتمتع بأي أهمية.

2. تحاول الولايات المتحدة الأمريكية تقليص التزامها نحو حليفاتها بشكل عام وحليفاتها في الشرق الأوسط بوجه خاص، وفي بعض الحالات تكون غير مستعدة لدفع الثمن المطلوب للحفاظ على "السلام الأمريكي"، وقد بقيت فعلا الدولة العظمى الوحيدة، حتى حين تزداد بعض القوى الأخرى قوة (وأهمها الصين) أو تحاول الاحتفاظ بما لديها من قوة (روسيا على سبيل المثال)، ولكنها سئمت دور شرطي العالم رغم أن لا بديل لها في ذلك. ومن جهة أخرى أصبح ينظر إلى الولايات المتحدة على أنها لم تعد كما كانت عليه سابقا من حيث قوتها ومناعتها الاقتصادية، وهو أمر شديد الأهمية في الطريقة التي تنظر بها دول المنطقة إليها وإلى قوتها (وإن كان هذا الوضع يتغير إلى الأفضل منذ مطلع عام 2015). لقد خيبت الولايات المتحدة آمال أصدقائها وفاجأت خصومها حين تخلت عن أصدقاء لها وتجاهلتهم في وقت الضيق (مبارك على سبيل المثال). وقد مثلت قرارات الإدارة الأمريكية حول الخروج المبكر من العراق دون انتظار بناء قوة الجيش العراقي بما يكفي، والجلاء عن أفغانستان دون أن تخلف وراءها حكما قويا بما يكفي للتعامل مع طالبان، ضربة كبيرة إلى مكانة الولايات المتحدة في المنطقة، وكان ذا تأثير مماثل تفاديها لمهاجمة نظام الأسد بعد تجاوزه السافر للخط الأحمر الذي يمثله استخدام الأسلحة الكيماوية، وهو الخط الذي رسمه الرئيس نفسه، وكذلك مواقفها "اللينة" بنظر عدد من دول المنطقة في المفاوضات الجارية مع إيران. كما كان تخلي الأمريكيين فعلا عن الخيار العسكري في الحملة الهادفة إلى منع إيران من اكتساب القدرات النووية العسكرية ذا أهمية قصوى في النحو الذي كان الكثيرون يقدرون به التزام الولايات المتحدة نحو المنطقة بشكل عام وإبعاد المخاطر (الوجودية) عن حليفاتها. وقد كان تراجع قوة الولايات المتحدة موضوعيا أقل من فقدانها لجانب كبير من عزمها على العمل، ليفقدها ذلك الكثير من المصداقية لدى صانعي القرار في المنطقة.

3. لا وجود اليوم لقوة صاعدة أخرى، أو دولة تتزايد قوتها ولها استعداد لتحمل ولو نزر يسير من المجهود الذي تحملته الولايات المتحدة خلال المئة سنة الأخيرة، بل لا تشعر أي من القوى الصاعدة في الاقتصاد ومجالات القدرة العسكرية والتكنولوجية بأنها تتحمل ولو جزء بسيطا من المسؤولية العالمية التي دفعت الولايات المتحدة منذ الحرب العالمية الأولى، ولا يوجد في العالم زعيم جاهز

للتضحية بجيشه من أجل "القيم الكونية"، لذلك يتبع الجميع سياسة أنانية لا تراعي إلا احتياجات الدولة التي يحكمونها. وقد قال لي مسؤول في دولة في طور التعاظم: "تقتصر مسؤوليتنا على أمر واحد فقط، وهو أن يكون لمواطنينا ما يكفي من الطاقة للتدفئة في الشتاء"، وأوضح أن ذلك يدفع دولته إلى عدم الالتزام الكامل بالعقوبات المطلوبة ضد إيران في مجال النفط.

4. اختفت أوروبا من المعادلة الشرق أوسطية (وربما العالمية)، فلا عندها الوسائل ولا الرغبة ولا البنية السياسية التي تمكنها من اتخاذ القرارات وتنفيذها، لذلك، ورغم مجاورتها للشرق الأوسط، يكاد لا يكون لديها تأثير على ما يجري في المنطقة. ولئن كانت بعض الدول في الاتحاد تتمتع بأهمية تفوق أهمية الاتحاد باعتباره كتلة سياسية واحدة، إلا أن تخليها عن قوتها العسكرية قد أبقاها خارج دائرة التأثير عند الأزمات من أمثال تلك التي يواجهها الشرق الأوسط، وسيكون اليوم الذي صوت فيه مجلس العموم البريطاني ضد استخدام القوة بحق الأسد بعد استخدامه للسلاح الكيماوي ضد مواطنيه (آب / أغسطس 2013) رمزا في المستقبل لخروج أوروبا عن موقف التأثير الحقيقي فيما يجري في الشرق الأوسط. لقد بقيت لأوروبا أهميتها كمن يقود أكبر كتلة ديمقراطية ضمن عموم الدول الغربية وكشريكة تجارية هامة لعدد من الدول، وهو ما يكسب تصرفاتها التأثير على إسرائيل، ولكنها قدرة بحد ذاتها لا معنى لها بالنسبة لأي دولة أو مجموعة أخرى في الشرق الأوسط.

عدا عن ذلك لا يزال من الصعب في الوقت الحالي تقدير كيفية تأثر الشرق الأوسط بالتغيرات الناشئة عن كون تحرر الولايات المتحدة من اعتمادها على استيراد الطاقة يصبح حقيقة ملموسة. ورغم كون الشرق الأوسط لا يزال من أهم مصادر النفط والغاز وأكبرها بالنسبة لآسيا وأوروبا، إلا أن الولايات المتحدة قد قل اعتمادها عليه كثيرا. زد على ذلك أن أسواق اليوم مشبعة بالنفط، ولو قررت الولايات المتحدة تصدير الغاز، سيتم عرضه بكميات كبيرة على كل من يشاء، والحديث يدور حول سوق تتراجع فيها أسعار الطاقة التي تعتبر مصدر أموال الدول الغنية في الشرق الأوسط، ومن شان الواقع الجديد أن يزيد الولايات المتحدة تخليا عن التزامها نحو الشرق الأوسط والدول المصدرة للنفط التي تتصدرها العربية السعودية. وقد اصبح واضحا أن قدرة الدول النفطية في الشرق الأوسط على حشد دعم الولايات المتحدة ستقل، ومعها أيضا قدرتها على استثمار مبالغ كبيرة من المال في إدارة سياساتها الخارجية، والأمر ينطبق على مبالغ طائلة تدفعها السعودية والإمارات إلى مصر لتخليصها من براثن الإخوان المسلمين المكروهين في الخليج، ويسري كذلك على الاستثمارات الإيرانية في لبنان وحزب الله وسوريا، علما بأن التغيرات التي يشهدها اقتصاد الطاقة ليس تأثيرها على العالم والمنطقة سوى في مرحلة البداية، ويجدر متابعتها لأهمية هذه السوق بالنسبة للدول القيادية في المنطقة.

ومن الواضح أنه حتى لو أصبحت الولايات المتحدة مستقلة في مجال الطاقة لتستغني عن استيراد الطاقة من الشرق الأوسط، إلا أنه سيبقى من مصلحتها الحرص على علاقاتها الخاصة مع الدول النفطية الغنية، سواء لكونها زبونات هامة في سوق الوسائل القتالية وتستثمر مبالغ لها تأثيرها على الاقتصاد الأمريكي، أو لكون الولايات المتحدة لن ترغب في فقدان مصادر للقوة والنفوذ في العالم لصالح منافِسات لها من أمثال الصين وروسيا. وفعلا أصبحت السعودية تخوض منذ نهاية عام 2014 حربا اقتصادية، تشمل تخفيضا حادا لأسعار النفط بهدف إخراج الدول المنتجة للنفط الأغلى ثمنا من دائرة الإنتاج والتسويق، وعلى رأس هذه الدول الولايات المتحدة، وذلك لئلا تفقد حصتها من سوق النفط مستقبلا. وحين ينتهي هذا الصراع من أجل حفظ أهمية السعودية والشرق الأوسط بمجمله في

سوق الطاقة، ستتضح الصورة إلى حد ما في هذا المجال، ليصبح موقع سوق الطاقة وتأثير متغيراته على العالم الجديد أكثر وضوحا.
وكما أشير إليه، إن الجمع بين الانفجار الداخلي للشرق الأوسط وغياب قوة خارجية، سواء كانت من الدول الكبرى أو غلب عليها الطابع الدولي الراغب والقادر على تهدئة أو وقف القوى المنفلتة المعربدة فيه، يزيد النتيجة فوضوية.

هل يمكن إرجاع العجلة إلى الوراء؟

هل تستطيع الجهود الحربية الهادفة إلى القضاء على تنظيم الدولة الإسلامية والتي أعلن عنها الرئيس أوباما في 19 أيلول / سبتمبر 2014، تغيير مجريات الأمور في الشرق الأوسط؟ بتقديري أن الرد سلبي، ضمن الدائرة الصغيرة للقتال ضد الدولة الإسلامية، ناهيك عن الدائرة الأكبر للصراع ضد المسيرة الراديكالية الإسلامية في منطقة الشرق الأوسط الشاسعة.

فالولايات المتحدة لا تستطيع تحقيق النجاح في القتال ضد حركة "الدولة الإسلامية" دون بذل موارد أكبر بكثير، إذ يتطلب "تدمير التنظيم"، وهو الهدف الذي أعلنه الرئيس الأمريكي، نشر قوات برية ملموسة لدعم الأكراد وغيرهم في مواجهتهم مع جيش الدولة الإسلامية المتميز بنشوة النصر والتعطش للدماء، وإذا كان ثمة أمل في بناء مثل هذه القوات في العراق معتمدة على الجيش العراقي والقوات الكردية، فمن الواضح أن ذلك مستحيل في سوريا، علما بأن الدولة الإسلامية تعتبر المناطق السورية آمنة تحت سيطرتها ولا تهديد حقيقي يواجهها. والذي عمل في صالح من استخدموا القوة الجوية في كوسوفو، والى حد بعيد خلال الحملة الأخيرة في غزة، لا معنى له أمام قوات ليس لها التزام نحو أي مجتمع في المنطقة، فقادة حركة الدولة الإسلامية لا التزام لهم إلا نحو أنفسهم ورجالهم المقاتلين في ساحة القتال. هذا هو "المجتمع" الذي يهتم به هؤلاء القادة، ولذلك، فما دام لم يتم القضاء على رجالهم، ليس ثمة سبيل لاستهداف شيء يعتبرونه حيويا، والموقف مختلف تماما عن القتال ضد جيش تابع لحكومة لها قدر معين من الالتزام نحو مواطنيها، بل هو يختلف حتى عن محاربة حماس التي وإن كان التزامها نحو المواطنين في أدنى حدوده، إلا أنه قائم. أما ما نحن فيه فهو حرب إبادة بأكثر معانيها بدائية، إذ يترتب على التكنولوجيا المتقدمة للقرن الواحد والعشرين التعامل مع تحدي الحروب القديمة المتمثل في قتل جنود الطرف الآخر، وكما سبق الإشارة إليه، لا يمكن النجاح في مثل هذه الحرب دون قوات برية تتمتع بقدرة حقيقية، وهي ليست موجودة في العراق، فكم بالحري في سوريا (أما المسألة المهنية الخاصة بغياب معلومات استخبارية على مستوى جيد كشرط لا بد منه لنجاح عملية جوية ضد عدو من هذا النوع وكيفية الحصول عليها لحساب القوات الجوية، فهي مسألة تتطلب نقاشا منفصلا).

وفي الدائرة الأوسع يمكن تشبيه جهود الولايات المتحدة وحليفاتها بإلقاء الحجارة في نهر المسيسيبي أملا في تغيير مساره. إن الموجة الإسلامية الراديكالية موجة تاريخية تتعلق بتطورات ظل العالم الإسلامي يشهدها منذ العشرات من السنين، وبالصراع الدائر حول تحديد طبيعته وهويته، وكانت بذور هذه الأزمة قد زرعت كما أسلفنا لدى سقوط الإمبراطورية العثمانية في أوائل القرن العشرين، أي قبل مئة عام، والأزمة تزداد طاقة منذ عام 1979، أي منذ أكثر من 35 سنة، والتأثير في مثل هذه الموجة العارمة شيء صعب جدا وقد يكون مستحيلا حتى بالنسبة للولايات المتحدة، لما تتميز به من شساعة جغرافية وعمق ديني وثقافي.

ومن الواجب والحالة هذه التعرف على المواقع الأكثر خطرا في هذا السيل العارم والتركيز عليها منعا لأخطر الكوارث. وقد يتناقش البعض فيما إذا كانت خمس حالات من قطع رؤوس أمريكيَين وبريطانيَين وياباني وحرق طيار أردني تشير إلى وجود خطر أكبر من مقتل مئتين وخمسين ألف سوري، معظمهم على أيدي الرئيس السوري بشار الأسد وأتباعه، كما لا يمكن التساهل مع قسوة أفراد تنظيم الدولة الإسلامية، ناهيك عن تصفية طوائف بكاملها، لمجرد كونها غير إسلامية (وبالمناسبة، إن مسيرة اختفاء المسيحيين من الشرق الأوسط هي مسيرة تاريخية ملفتة توازي تعزز حركات الإسلام الراديكالي، وثمة أماكن مثل مدينة بيت لحم ولبنان وغزة يغادرها المسيحيون بضغط من بيئتهم، ولكن دون إراقة للدماء، بل هناك أماكن يخيّرون فيها بين اللجوء والإبادة، ومنها العراق على سبيل المثال). ولكن السؤال الذي يطرح نفسه لا يدور حول من أكثر إثارة للمشاعر السلبية بواسطة قسوته، بل من أخطر وأشد تهديدا لمصير العالم، والرد دون أي شك هو أن إيران تمثل تهديدا أهم بكثير بكافة المعايير.

لقد ازداد مركز إيران قوة إلى درجة كبيرة خلال العقد الأخير، ولم يكن الإيرانيون من أطلق الموجة الانفجارية الأولى إلى الشرق الأوسط من خلال ثورة العام 1979 وحسب، بل كانوا أيضا يتمتعون باستعداد أكبر من غيرهم لاستثمار الأموال والتضحية بالدماء لدفع مصالحهم، وعرفوا كيفية الاستغلال الأمثل لنقاط الضعف التي تجلت في النظام الإسلامي / العربي والدولي. ورغم التنافس بين الفرس والعرب عامة وبين الشيعة الفارسية والشيعة العراقية بوجه خاص، أجاد الإيرانيون التعرف على سبل التوصل إلى تأثير شبه مطلق عند مراكز هامة لمختلف النزاعات، وسط الاستعانة بطوائف الشيعة في كل من هذه المراكز (اليمن، العراق، سوريا، لبنان، وحتى غزة التي تخلو من أي شيعي...). ويبدو أن إيران قد شعرت أيضا بضعف الولايات المتحدة ومخاوفها من التورط في حدث يلزمها باستخدام القوة العسكرية في المنطقة. وبناء على هذا الإدراك تنشغل إيران حاليا في محاولة تجنيد الولايات المتحدة باعتبارها "شريكا" جديدا، عبر قدرتها على دعم الولايات المتحدة في الحرب على الدولة الإسلامية. وثمة مثال آخر على قدرة الإيران على بذل الموارد والتواصل بهدف التأثير، يتمثل في استعدادها للبذل أمام ضعف الجوار، ولكن الإيرانيين لا يكتفون بهذه القدرات، إذ يعتبرون أنفسهم دولة عظمى إقليمية على الأقل، وأصحاب رسالة دينية تمتد إلى خارج المنطقة، ولذلك يسعون لامتلاك سلاح نووي، إذ سيشكل السلاح النووي تهديدا للمنطقة بأسرها وأساسا لسباق حثيث لامتلاك السلاح النووي تكون نتيجته بالضرورة وجود قنبلة نووية في أيدي أكثر من طرف سني خلال وقت لا يطول (لقد أعلن السعوديون أنهم سيحصلون على قدرة نووية فيما إذا امتلكتها إيران، فيما لمح المصريون إلى أمر مماثل، وقالت جهات تركية الشيء ذاته لمعاوني عدد من أعضاء الكونغرس الأمريكي). وبدوره سيقترب السلاح النووي إذا وجد في أيدي مختلف الدولة السنية، من منال التنظيمات الإرهابية، لتكون حملة التسلح النووي في الشرق الأوسط نهاية ميثاق منع انتشار السلاح النووي، والذي يعتبر من الإنجازات الوحيدة للنظام الدولي في مجال منع انتشار هذا السلاح. وسيمثل الشرق الأوسط قبل ذلك، وتحت المظلة النووية الإيرانية، جنة للتنظيمات الإرهابية التقليدية التي لن تتردد في استخدام أسلحتها إذ ستعلم أن العالم سيتردد كثيرا قبل أن يعمل ضدها في بيئة يحتمل فيها حدوث مواجهة نووية، وسيسفر ذلك عن غرق المنطقة بأسرها في مستنقع من العنف الممارس تحت مظلة نووية تقضي على أي قدرة للعمل ضد الأطراف الراديكالية. ويوضح ذلك كله أن إيران النووية، حتى لو استبعدنا الحساسية الإسرائيلية، ستمثل بالنسبة إلى المنطقة والعالم تهديدا أشد بكثير من نجاح تنظيم الدولة الإسلامية، رغم تعطشه للدماء المثير للاشمئزاز. ويشكل ما سبق مثالا على تحليل يجدر القيام به للتركيز على الصراع ضد الأطراف

الأكثر تهديدا التي يحتمل تطورها على خلفية حالة المنطقة، ومن منطلق إدراك استحالة التغلب على مشاكل المنطقة جميعا.

المعاني إسرائيليا

في هذا البحر الهائج تقف دولة إسرائيل مثل الجزيرة المعزولة، كونها الدولة الوحيدة في هذه المنطقة المترامية الأطراف والممتدة من مضيق جبل طارق حتى الهند، التي ليست إسلامية وليست عربية، بل إن إسرائيل هي الدولة الوحيدة في المنطقة التي تعتبر ديمقراطية تعتمد على المجتمع المنفتح بأعمق معاني الانفتاح (أي المعنى الذي يمثله الفيلسوف كارل بوبر). جرت العادة فيما مضى على وصف تركيا أيضا بالديمقراطية، أما اليوم فقد بات واضحا أنها مقولة إشكالية من حيث عكسها للواقع. وفي الآونة الأخيرة أصبح البعض يشير إلى تونس على أنها بصيص من نور في ظلام الديكتاتوريات القديمة والجديدة، ولكن رغم ما تمثله من أمل، يجدر اختبار متانتها كديمقراطية على مدى حقبة أطول من الزمن، ولا شك أنها في الوقت الحاضر لا تمثل نموذجا يحتذى به لأي دولة أخرى في المنطقة.

تعتبر قدرات إسرائيل على تغيير مجريات الأمور في المنطقة محدودة جدا، فهي عاجزة عن تغيير الشرق الأوسط بالقوة، كما لن يكون لأي اتفاق بينها وبين الفلسطينيين تأثير على مام يجري، علما بأن نزاع إسرائيل مع جيرانها القريبين لم يكن له تأثير على الأحداث المهمة في المنطقة أو على العوامل الرئيسية المساهمة في الزلازل التي أحدثت الأزمة الخطيرة الحالية في الشرق الأوسط، لذلك لا يجوز تعليق شيء على حل هذا النزاع يتجاوز مجرد الحل نفسه، فهو لن يسهل النزاعات الأخرى، ولن يطمس أي من الخلافات المغذية للأحداث الحالية في المنطقة، لأنه غير ذي شأن بالنسبة لأي من عوامل الشقة التي تمزق الشرق الأوسط، وإذا كان مهما بالنسبة لإسرائيل والفلسطينيين، فهو خال من تأثير يتجاوز ذلك.
ومع ذلك يتوجب على إسرائيل إبداء اليقظة حيال احتمال أن تفتح التغييرات في البيئة الشرق أوسطية أمامها إمكانات جديدة للتعاون مع عدد من جاراتها، وهي تلك التي تفضل الوضع القائم على التغييرات البعيدة المدى، وتلك التي تخشى من إيران نووية، علما بأن الطريق إلى تعاون علني من هذا القبيل تمر بالضرورة باتفاق يتم التوصل إليه مع الفلسطينيين، وهو اتفاق لا بد منه لا لكون أي من القادة العرب يعتقد بأنه مهم، أو كون القادة العرب يهمهم مصير الفلسطينيين، فهو لا يهمهم. ولكن لا يستطيع أي منهم تجاهل الشارع، ولا سيما في مثل هذه الأيام التالية لأحداث الربيع العربي، فالشارع، ولأسباب شتى، ما زال يعتبر القضية الفلسطينية رمزا يظل الاهتمام ومشاعر الكثيرين جدا مسلطة عليه. لذلك فالفائدة الوحيدة التي سيجنيها الشرق الأوسط من اتفاق إسرائيلي فلسطيني ستتمثل في إتاحة تغيير منظومة العلاقات العلنية التي تقيمها إسرائيل مع بعض الدول العربية. ويحتمل أن يكون فقدان جانب من ثقة عدد من الدول الهامة بالولايات المتحدة عاملا يجعلها في الفترة التي تلي الاتفاق، تعتبر إسرائيل القوية والمستقرة نوعا من بديل للسند الأمريكي الآخذ في الاختفاء، وفي مثل هذه الحالة، وإذا تحقق نمو في التعاون مع هذه الدول، يحتمل أن تدعم مسيرة ما بعد الاتفاق الاستقرار في الشرق الأوسط، ولكن من المهم التشديد على أن أيا من المشاكل الأساسية للمنطقة لن يتم حلها ولن تتأثر بالاتفاق الذي سيحل النزاع الطويل القائم بين إسرائيل والفلسطينيين.
وسواء تحقق الاتفاق أو لم يتحقق، لا تستطيع إسرائيل تجاهل ما يحدث على امتداد حدودها وما عبرها، لكونها تقع في قلب العالم العربي والإسلامي الكبير. لقد تلاشى جزء هام من الجيوش النظامية التي ظلت

تهدد إسرائيل منذ تأسيسها (الجيش العراقي) أو أصابها ضرر جسيم (الجيش السوري). ولكن تترسخ على حدودها قوى من عالم الظلام الشرق أوسطي الهائج، وهي قوات السلفيين المتشددين وبوادر الدولة الإسلامية في سيناء، والجناح الفلسطيني المسلح للإخوان المسلمين وهو حماس والجهاد الإسلامي في فلسطين في غزة. أما في لبنان فقد أنشأ الإيرانيون تنظيم حزب الله الذي يعتبر أقوى تنظيم إرهابي في العالم، ويمتلك إمكانات عسكرية متقدمة تتمثل فيما يزيد عن مئة ألف صاروخ وقذيفة صاروخية والصواريخ الساحلية والصواريخ المضادة للطائرات وعشرات الآلاف من المقاتلين المسلحين والمنظمين تنظيما جيدا اكتسب بعضهم تجربته القتالية عبر قتاله في سوريا. وفي الوقت نفسه تشهد سوريا حالة من الفوضى العارمة، حيث تسيطر على بعضها جماعات سنية متطرفة على هذا المستوى أو ذاك، يمثل أكثرها تطرفا تنظيم الدولة الإسلامية والذي يسميه البعض داعش، ويسميه الناطقون بالإنجليزية IS. إنه التنظيم الذي أعلن الرئيس أوباما الحرب عليه، علما بأن حكم الأسد يصمد بقوة التدخل الأمريكي ومقاتلي حزب الله (وبدعم هادئ ولكنه فعال من جانب روسيا). ولكون الأسد يعتمد على حزب الله، يقوم بدعمه قدر الإمكان باعتباره جسرا له من إيران وينقل إليه جانبا من قدراته العسكرية الأكثر تقدما، كما يسمح لحزب الله بإنشاء منظومة عسكرية جديدة أمام إسرائيل في هضبة الجولان، وعليه فإن إسرائيل تحيط بها تنظيمات إرهابية تملك القدرات الهجومية غير القليلة من جميع جوانبها تقريبا. ومع أن قدراتها قد لا ترتقي إلى مستوى قدرات الجيوش النظامية (ويمثل حزب الله استثناء من هذه الناحية وفيما يتعلق بقوته النارية)، ولكن تستوجب طبيعتها الأخذ بالحسبان الانتقال من الحياة الطبيعية إلى القتال خلال وقت قصير جدا ودون استعدادات كثيرة (أي المفاجأة). وستواجه إسرائيل من حولها خلال السنوات القليلة القادمة تنظيمات مسلحة لا تتبع دولا وهي متهيئة وذات قوة متزايدة، وعلى من يقاتلها أن يضمّن اعتباراته الصورة الأوسع للشرق الأوسط وصعود الإسلام الراديكالي. وسيوضح مثل هذ التفكير على ما يبدو أن الحديث لا يدور حول قتال تزرع لدى انتهائه ساحة القتال بأدوات الدمار لتبدو هزيمة العدو واضحة جلية، لأننا بصدد صراع سيزيفي لامتناهي تختلط فيه التنظيمات الإرهابية بالسكان المدنيين، ومنهم من يتضامن مع الإرهاب ومن لا يبالي به، ولكن وجودهم يعقد القتال لينال من قدرة جيش الدفاع الإسرائيلي على العمل بلا معوقات.

ومن المهم التذكر أنه رغم كثرة الاختلافات بين شتى التنظيمات الإرهابية، ورغم كون بعضها يعتبر البعض الآخر عدوا له، بل يكون على استعداد لإبادته، إلا أن التنظيمات الإسلامية الراديكالية يجمعها عامل واحد يتمثل في كونها جميعا مؤمنة بأن الإسلام يجب أن يحكم العالم، أما الجدل بينها، والذي قد يتواصل حتى الموت، فيدور حول مسألة ما هو هذا الإسلام. وعلى هذه القاعدة المشتركة من تفوق الإسلام توحدها كراهية إسرائيل (ولكن ليس إسرائيل وحدها)، بل تجعلها في بعض الحالات على استعداد لوضع الصراع الدائر فيما بينها جانبا ودعم بعضها لبعض في القتال ضد إسرائيل، والبقاء في الوقت نفسه على طرفي الخلاف إسلاميا. وعلى هذا النحو تستطيع إيران التي تقتل هذه الأيام السنة في سوريا والعراق وبلوتشستان، بناء تنظيم الجهاد الإسلامي السني وإرسال ما تستطيع إليه سبيلا من الدعم إلى حماس، وهي الحركة السنية الراديكالية. وهكذا تكتسي مقولة "أنا ضد أخي وأنا وأخي ضد ابن عمي وأنا وأخي وابن عمي ضد الغرباء" معنى عمليا جدا، فالجميع تقريبا يوحد قواه ضد الغرب وإسرائيل، رغم ما يكنه البعض للبعض الآخر من مقت ورغم استعدادهم لقتل بعضهم بعضا في المواقع التي يتنافسون فيها على الهيمنة، لأن ما يوحدهم أقوى مما يفرقهم حين يتعلق الأمر بعدو من خارج الإسلام، ولأن "الإسلام هو الحل" بالنسبة لجميعهم.

تعتبر إسرائيل شاءت أم أبت، دولة غربية من حيث كافة عناصرها تقريبا، لذلك ينظر إليها معظم سكان المنطقة على أنها عنصر دخيل استعماري وموقع أمامي للعالم الآخر المعادي الديمقراطي الليبرالي،

والذراع الطويل للغرب بقيادة الولايات المتحدة، وكما يقول الإيرانيون، "الشيطان الأصغر" الممثل "للشيطان الأكبر". زد على ذلك أن غالبية الإسرائيليين راغبون في البقاء على حالهم ويرفضون التشبه بالجيران، رغم أن هذا الأمر يفرض على إسرائيل قيودا غير سهلة في سلوكها في السلم والحرب، وهو أمر جيد في رأيي المتواضع. ولكن لا يجوز نسيان الجوهر والمتمثل بأن إسرائيل لن يكون لها مكان في عالم قاس يستخدم فيه أعداؤها سلاح القرن الواحد والعشرين ولكنهم يقاتلون ويقتلون وفقا لقواعد سلوك القرن السابع، وسوف تنتهي إلى الزوال، في حال فقدت شيئا من قوتها أو زال عنها العزم المطلوب لاستخدامها. وسيمر الكثير من الوقت وعدد غير قليل من الحروب، حتى يصبح في الإمكان نقل القواعد التي تسير عليها أوروبا حاليا، أو العلاقات السائدة بين الولايات المتحدة وكندا إلى الشرق الأوسط دون إحداث كارثة كبيرة.

لقد سمعت مؤخرا من قائد دولة غربية كان قد ترك منصبه، أنه وإن لم يكن يقول ذلك علنا لسكان بلاده، إلا أنه مدرك لكون إسرائيل تقف في جبهة صراع العالم الديمقراطي العصري ضد قوى الإسلام الراديكالي، وهو إدراك سليم تنشأ عنه مستنتجات عملية، تتمثل في أن ثمة أهمية ليس بعدها أهمية لمضاء السيف الإسرائيلي واستعدادها لاستخدامه على السواء، وذلك ليس من أجل نفسها فحسب، وإن كانت غيرها من الدول الديمقراطية غير مستعدة للاعتراف بذلك.

لن يكون للاتفاقات التي سوف تتوصل إليها إسرائيل معنى عملي في العالم المتكون في الشرق الأوسط، إذا لم تتحل بما يلزم من قوة للدفاع عنها، بل أكثر من ذلك، إن التطورات من أمثال تعزز القوى الإسلامية، مثل تنظيم الدولة الإسلامية أو وجود قنبلة نووية في أيدي إيران، تحول الاتفاق مع الفلسطينيين إلى اتفاق إشكالي جدا، وفي مثل هذه الحالات تزداد كثيرا فرص كون من يوقع على الاتفاق ليس هو بالذات من يحكم الأرض في نهاية المطاف ويحدد الموقف من إسرائيل. من الممكن، بل من المعقول أن تكون أكثر العناصر راديكالية هي من يحكم الضفة الغربية وغزة أيضا سواء بشكل مباشر أو عبر مخالب قط، وستكون هذه العناصر هي من يحدد قواعد السلوك مع إسرائيل. يجب إذن أن يعتمد أي اتفاق مع الفلسطينيين على إدراك أنه ليس بوسع من يوقع على الاتفاق أو أي جهة أخرى ضامنة له، منع ذهاب الفلسطينيين أيضا إلى التطرف الإسلاموي. لقد انتصرت حماس في انتخابات حرة أجراها الفلسطينيون في عام 2006، وليس ثمة ما يدفع إلى الاعتقاد بأن قوتها قد وهنت مذ ذاك، بل بالعكس، يظهر أنها ازدادت قوة. وحتى لو تم انتخاب خلف لأبو مازن من ضمن أنصاره، لا يستطيع أحد ضمان متانة الحكم الفلسطيني وقدرته على الصمود بوجه موجة الإسلام الراديكالي التي قد تقود إلى حكم أكثر تطرفا حتى من حكم حماس. وتحسبا لسيناريو محتمل يتضمن حكما في غاية الراديكالية في رام الله، وعلى مرمى قذيفة هاون من مقر الكنيست في القدس، يجب أن تكون الوسائل الأمنية التي سيتم اتخاذها كجزء من الاتفاق شديدة الصلابة، علما بأن هذه المخاوف لم يحسب لها حساب في اتفاقات أوسلو، لتقود المسيرة إلى حالة تمكن فيها الفلسطينيون الخارجون من الأراضي الواقعة تحت السيطرة الفلسطينية في يهودا والسامرة، من قتل نحو مئة واثنين وعشرين مواطنا إسرائيليا خلال شهر واحد من عام 2002، حيث لم تستطع إسرائيل تغيير الموقف قبل أن تعيد احتلال عموم الضفة الغربية (مع بقاء السيطرة المدنية على الفلسطينيين في المنطقة لدى السلطة الفلسطينية). لقد كان خطأ لا يجوز أن يتكرر مستقبلا.

ورغم أن اتفاقا لا يلوح في الأفق، إلا أن على إسرائيل مواصلة محاولاتها للتوصل إليه، ولا توجد طريق سهلة إلى ذلك، كما أن الخلاف في الرأي بين إسرائيل والفلسطينيين لن يزول بسحر ساحر أو مقابل هذا

التنازل الإسرائيلي أو ذاك. فالمشكلة الرئيسية التي تشغل بال الفلسطينيين ليست ما احتل عام 1967 والسيطرة الإسرائيلية على الضفة الغربية، فهم لا يقبلون بنتائج المواجهة التي أعقبت قرار الأمم المتحدة سنة 1947، ولا يقبلون بوجود إسرائيل داخل حدود وقف إطلاق النار لعام 1949، إذ يتبين أن معادلة "الأرض مقابل السلام" كانت وهما، وليست هي لب القضية الفلسطينية فيما يتعلق بالنزاع، إنما هو وجود دولة يهودية في منطقة يعتبر الفلسطينيون أنها وطنهم، أي إن يافا وطبريا وصفد تحت الحكم الإسرائيلي تضيق على الفلسطينيين أكثر من حواجز جيش الدفاع الإسرائيلي في مشارف الخليل أو نابلس. لذلك يجب على الفلسطينيين أولا استيعاب حقيقة استمرار إسرائيل في البقاء باعتبارها الدولة القومية للشعب اليهودي، ويجب على اللاجئين الفلسطينيين قبول كونهم لن يصلوا إلى إسرائيل، بل أكثر من ذلك، فعلى خلفية الشرق الأوسط الهائج المتطرف في معظم أجزائه، ورغم ما ينطوي عليه الأمر من حساسية وصعوبة، ينبغي على الفلسطينيين إدراك أن جزء من ضمان أمن إسرائيل مشروط بانتشار جيش الدفاع الإسرائيلي في بعض المناطق الحيوية، وهي المناطق التي سيسفر تواجده فيها بالضرورة عن عزل حقيقي بين العالم العربي والدولة الفلسطينية، وإلا، قد تكون إسرائيل بتوقيعها على اتفاق وجلائها عن المنطقة هي من يساعد على بناء قوة أصولية خطرة على مقربة من تجمعاتها السكانية، وهي القوة التي سوف تستغل الاستقلال الفلسطيني في بناء قدرات إرهابية هدفها إبادة إسرائيل. فمن غير الجائز الافتراض بأنه بجوار إسرائيل بالذات سيزدهر الكيان العربي الوحيد الذي سيكون ديمقراطية محبة للسلام. قد يكون من الممكن بعد جيل أو اثنين إعادة النظر في هذه الحاجة، أما اليوم، وعلى خلفية الشرق الأوسط الحالي، فهي حاجة لا مفر منها، وكما أسلفنا إن مثل هذا الاتفاق لن يخفف من خطورة أي مسبب من مسببات ضائقة الشرق الأوسط، ولكنه سيسمح لإسرائيل بتنمية علاقاتها مع عدد من دول المنطقة.

خلاصة

كتب هنري كيسنجر في أحد مؤلفاته[2] يقول إن "دوافع المواجهات في الشرق الأوسط تشبه الدوافع التي حركت أوروبا في القرن السابع عشر"... و"التي قادت إلى حرب الثلاثين عاما"، بمعنى أن الشرق الأوسط يسلك نفس سلوك أوروبا قبل "صلح وستفاليا" الموقع عام 1648، وبعد حرب الثلاثين عاما. ينشأ عن ذلك أن الشرق الأوسط يتخلف عن العالم الحديث أكثر من ثلاثمئة وخمسين عاما فيما يتعلق بالحرب والسلام والعلاقات بين مختلف الدول والجماعات. ولكن العبرة ليست في عدد السنين، بل في جوهر الأمور. ففي "صلح وستفاليا" رسمت الدول الأوروبية ذات الصلة صورة العلاقات بينها على أساس من الاعتراف بسيادة الدول واستثناء العنصر الديني من مجمل العناصر الحاسمة فيما يتعلق بإعلان الحرب. أما الشرق الأوسط فيسير في اتجاه معاكس، حيث تتحطم حدود الدول وتصبح السيادة لا معنى لها، والفوارق الدينية شديدة التأثير على العلاقات بين مختلف الجماعات، وتغلب في عدد ملموس من الأماكن على أي فارق آخر، حيث يدور العديد من الحروب على خطوط التماس بين القبائل والفئات والديانات. بل إن التنظيمات غير السيادية تحل محل الدول في مناطق مختلفة، وحتى في الدول التي تواصل السيطرة بلا منازع في الظاهر، تقوم تنظيمات قوية بإنشاء شبكات من الدعم الاجتماعي وجيوش لا تقل قوة عن الدولة. وإن كانت مثل هذه

[2] Henry Kissinger, *Does America Need a Foreign Policy?: Toward a Diplomacy for the 21st* Century, Simon and Schuster, New York, United States, 2001, p.164-165

المسيرة ليست بالجديدة، إلا أنها ازدادت قوة خلال ما يسمى "الربيع العربي"، ويعود ذلك أساسا إلى وهن العنصر السيادي واعتزاز القوى المفرقة في المجتمع العربي. هذا الانحطاط يمثل عاملا مبعدا من أي مسيرة تؤول إلى نضج سياسي من طراز وستفاليا، فقد أنجى "صلح وستفاليا" أوروبا من أن تصبح منطقة يعمها الدمار، ولكن لا يعرف إن كان سيقود إلى صلح مماثل في الشرق الأوسط، ومتى سيحدث ذلك.

إذن إلى أين يسير الشرق الأوسط؟ من الصعب جدا الإجابة والشرق الأوسط تسوده مثل هذه الفوضى. وكما قال البروفسور يوسيف دان عن مجمل الظواهر في عالم الطبيعة والمجتمع البشري فيما يتعلق ب"مفهوم الفوضى": " ثمة أسباب، ولكن نتائجها لا يمكن التكهن بها بدقة، حيث تتطور من نظام قليل العناصر نتائج متنوعة تنوعا لا متناهيا، ليس من الممكن التكهن بها بدقة".[3] واضح من ذلك أن من الواجب التحلي بالتواضع فيما يتعلق بقدرتنا على تقدير التطورات المستقبلية في المنطقة، بمعنى أنه حتى لو امتلكنا معلومات جيدة ومفصلة حول مختلف مسببات الوضع الحالي، فعلى أساس الظواهر عينها لا سبيل إلى معرفة ماذا سيحدث من الآن فصاعدا. زد على ذلك أن التدخل الخارجي في المسيرة قد يفضي إلى ظواهر مختلفة متنوعة لا تخطر اليوم ببال أحد، ومنها أن مهاجمة تنظيم الدولة الإسلامية من قبل التحالف الذي تقوده الولايات المتحدة والتعاون العملي على الأرض بين الميليشيات الشيعية والولايات المتحدة قد يفضيان إلى توحيد للقوى السنية التي ستعتبر الولايات المتحدة عدوا لجميع السنة، اتخذ طرفا في أقدم صراع في المنظومة الإسلامية، في المعركة بين الشيعة والسنة، ذلك أن امتناع الولايات المتحدة عن مهاجمة الأسد، وهو العلوي الذي قتل عشرات الآلاف من السنة واستخدم ضدهم الغاز، يبدو للعديد من السنة غير معقول وغير منصف، إذا قورن باعتداءات الدولة الإسلامية التي قتلت عددا أقل بكثير من الناس. وسيزيد هذا الشعور عمقا التعاون مع إيران أو مع ميليشيات شيعية ضد الدولة الإسلامية، لكون الشيعة لا يعتبرون مقاتلي الدولة الإسلامية وحسب بل أي سني من سنة العراق عدوا محتملا، لا بل إنهم يعملون بهذه القاعدة في جميع الأراضي المأهولة بالسنة. وفي المقابل سيحاول السنة توحيد الصفوف في مواجهتهم، إن لم يكن حبا في الدولة الإسلامية، فكرها للشيعة. هذا الشعور بالاضطهاد قد يغير موازين القوى في المنطقة لصالح التنظيمات السنية المتطرفة بالذات من أمثال الدولة الإسلامية، وذلك بما يتعارض تماما مع ما تبغيه الولايات المتحدة. زد على ذلك أنه في إطار مسيرة أطول يحتمل أن يقود مثل هذا السلوك إلى صراع أوسع نطاقا ضد الولايات المتحدة، رغم كون العديد من الدول السنية تدعمها اليوم وتُدعم منها. إنها مجرد مثال على احتمال وإن كان مستبعدا، غير أنه ليس مستحيلا، لم يفكر فيه أحد حين اتخذ قرار مهاجمة الدولة الإسلامية لاحتواء ما أوجدته من تهديد، علما بأن المسيرات التي شاهدناها في السنوات الأخيرة تضمنت أحيانا ما كان يعتبر اقل احتمالا.

السؤال الملفت تاريخيا يتمثل فيما إذا كان القرن القادم في الشرق الأوسط سيتميز بصراع متعدد السنين بين الإسلام الراديكالي من جهة، وبين الغرب الديمقراطي وبعض الدول الأقل ديمقراطية ولكنها وطن لأقليات إسلامية (مثل الصين وروسيا) من جهة ثانية، وبين الشيعة والسنة وما إلى ذلك من عمليات إبادة متبادلة ضمن الصراعات المميزة لكل منطقة، أم إن الأحداث التي تقع أمام أعيننا اليوم والتي تبدو صراعات مريرة تدور حول مستقبل المنطقة، ليست سوى حدث عابر تخرج المنطقة بعدها من الأزمة نحو حقبة أكثر تفاؤلا. وإذا تحقق ذلك فعلا، فسيكون تبين أن هذه الأحداث كانت بمثابة الأنفاس الأخيرة لقوى الشر قبل أن تكون قد اختفت من المنطقة والتي ستزداد حرية واستقرارا وأمانا. وفي كلتا الحالتين لا يمكن فهم ما يجري دون

[3] يوسيف دان، *نظرية الفوضى وعلم التاريخ*، (تورات هكاؤوس أوماداع هيستوريا) تل أبيب، دار "دفير" للنشر، 2009, ص. 17

استيعاب كون جميع الأحداث الحالية في الشرق الأوسط ذات طابع معقد تساهم فيها قوى تمثل توترا يعود لمئات السنين بين السنة والشيعة، وقوى للإسلام الراديكالي الذي يبحث عن موقعه من العالم أمام قوى أخرى تجذب نحو الحداثة الاجتماعية والولاءات المحلية التي تكون قد حلت محل الانتماء للدولة الذي فُقد تماما أو خسر بعض قوته، وقوى رسمية تحاول إدامة الوضع القائم ومواصلة التمتع بالمركز الخاص بها.

وكما سبق قوله من الصعب تقدير نتيجة هذه المنظومة المعقدة من الصراعات، ولكن في حدود ما يمكن قوله، وبناء على تجارب الماضية أساسا (وبالقدر الذي يمكن اعتبارها ذات صلة بالمستقبل)، فإن ما يرتسم أمامنا مع أسفي الشديد هو الاتجاه الأكثر تشاؤما.